غادة السمان والكتابة المتمردة

■ لعل الكتابة عن روائية وشاعرة وناقدة وصحفية وأديبة مرهفة بحجم غادة أحمد السمان يعدّ بحد ذاته مجازفة كبرى، لأنه يحمل في طياته مزالق شتى، وربما تكون متعاكسة في بعض الأحيان... فهي ـ من دون مراء ـ كاتبة نسائية استشعرت مشكلات المرأة وجعلتها مادة أدبها ونقدها ومقالاتها؛ وعبرت عنها وعن قضاياها بكل صدق وحيوية وحرية وجرأة؛ ومزجت ذلك بالكتابة عن عواطف الحب والجنس؛ ما جعل الكاتب الإيطالي (باولادي كابوا) يضع عنها كتاباً بالإيطالية بعنوان (التمرد والالتزام عند غادة السمان) وترجم في دار الطليعة (١٩٩١م) التي يملكها زوجها المرحوم الدكتور بشير الداعوق البيروتي النسب، الذي انتقل إلى رحمته تعالى عام (٢٠٠٧م) وترك في نفسها ندوباً عظيمة؛ إذ كشفت عن وفاء له لا نظير له، وحبّ يختبئ تحت ضلوعها قل أن نجد شبيهاً له، دون أن تظهر،... على الرغم من أن الناس عرفوا عواطفها الحميمية الصادقة نحو الكاتب الشهيد (غسان كنفاني) في الكتاب الذي نشرته بنفسها عام (١٩٩٣م) بعنوان (رسائل إلى غسان كنفاني).

د. حسين جمعة

فكانت أول امرأة تعترف علناً بهذا النمط من العواطف والكتابة الصريحة عنها؛ علماً أنها بادلت الصحفي الفلسطيني (ناصر الدين النشاشيبي) والشاعر الشهيد (كمال ناصر) رسائل مثيرة ما زالت تحتفظ بها... ومما جاء في رسائلٍ غسان إليها قولها على لسانه: «أعرف أن شيئاً واحداً أستطيع أن أقوله، وأنا واثق من صدقه، وعمقه وكثافته، وربما ملاصقته التي يخيل إليّ الآن أنها كانت شيئاً محتوماً، وستظل كالأقدار التي صعقتنا: إنني أحبك»...

وقد يتساءل المرء: ما الذي يكمن وراء ذلك كله؟ كيف يمكن لإنسانة أن تكون في وقت واحد امرأة شموساً جامحة في حياتها وكتاباتها، وامرأة وديعة وهادئة، مثلت الزوجة المحبة لبيتها الذي ركنت إليه نحو أربعين سنة منذ زواجها بالدكتور بشير الداعوق أواخر عام (١٩٦٩م) حتى وفاته، على الرغم من اختلاف مزاجيهما فهو هادئ الطبع، وهي حادته، وهو بارد كالثلج ـ كما قيل ـ وهي كالنار المتأججة؟!! ويبدو لي أن تمرّد غادة السمان من طراز خاص ومثير، فهي لم تتمرد على العلاقات الأسرية الصحيحة في المجتمع العربي وإنما تمردت على طريقة تعامل هذا المجتمع مع المرأة التي جعلها مجرد متاع... ولا شيء أدل على هذا من أنها تعلقت بزوجها الذي أنجبت منه ابنها الوحيد (حازم) الذي سمته باسم واحد من أبطال مجموعتها (ليل الغرباء).

وهي القائلة: «أعتقد أن الأسرة العربية مؤسسة جميلة تستحق الحرص عليها، ولكن علينا تحويلها إلى مؤسسة ديمقراطية؛ ونطلق سراح أبنائها من أحلامنا الصغيرة، ونتركهم يصنعون دهشتهم بأنفسهم بعد أن نغرس في نفوسهم الانتماء القومي إلى الوطن والمجتمع».

وقد ولدت غادة بدمشق عام (١٩٤٢م) وكانت الوليدة تنمو وتكبر وتفتح عينيها على وسط اجتماعي دمشقي شديد المحافظة يتصف بقيود صارمة مع مجتمع الحريم... ثم دخلت جامعة دمشق وتخرجت في الأدب الإنكليزي عام (١٩٦٣م)، ولم تلبث أن انتقلت إلى بيروت؛ مدينة الثقافة الواسعة، والحياة الصاخبة، وحياة المجتمع المفتوح، وانتسبت للجامعة الأمريكية التي حازت منها درجة الماجستير في مسرح (اللامعقول).

ولا مراء لدينا في أن هذه النشأة القلقة اجتماعياً وثقافياً ودينياً قد صقلت تجربتها، وغذت ثقافتها، وأرهفت مشاعرها نحو بنات جنسها، فأصدرت مجموعتها القصصية الأولى في بيروت عام (١٩٦٢م) بعنوان (عيناك قدري) تعلن فيها تمرّدها على كل ما تراه في ذلك الوسط الذي عرفته في دمشق... ثم أصدرت مجموعتها الثانية في بيروت التي اتخذتها سكناً لها عام (١٩٦٥م) بعنوان (لا بحر في بيروت)... وهي تنطلق في ذلك كله مما رسخ في ذهنها من ثقافة وفلسفة وجودية وعادات وتقاليد ومقولات كمقولة ابن رشد: «إن الكثير من الفقر والشقاء يرجع إلى أن الرجل يمسك بالمرأة لنفسه كأنها نبات أو حيوان أليف كمجرد متاع فان بدلاً من أن يمكنها من المشاركة في إنتاج الثروة المادية والعقلية وفي حفظها».

ثم يممت الفتاة الجامحة وجهها نحو مدينة الضباب (لندن) لتتزود من ثقافتها، ولتعيش تجربة اجتماعية جديدة... وطفقت معارفها تزداد حجماً ودقة ومهنية ولا سيما أنها غدت مراسلة صحفية لمجلة لبنانية... في مثل هذا الفضاء من البيئة الاجتماعية والثقافية كتبت مجموعتها الثالثة (ليل الغرباء) عام (١٩٦٦م) وهو العام الذي توفي فيه والدها ـ كما أشرنا ـ وحكم عليها بالسجن ثلاثة أشهر غيابياً؛ لأنها غادرت سورية من دون إذن؛ وطردت من عملها بوصفها مراسلة صحفية لإحدى المجلات اللبنانية... ومن ثم صدر عام (١٩٧٠م) عفو رئاسي شملها...

وحين كانت تلتقط حكايات واقعها الاجتماعي القديم والجديد وتعبر عنها بقصص شيقة . وقعت نكسة (حزيران ١٩٦٧م) كالصاعقة عليها فتركت جرحاً عظيماً في نفسها، إذ هزتها هزة عظيمة رفضت خلالها التسليم بمصطلح (النكسة) لأنه يؤثر في تربية الأجيال ومن ثم سقطت في أحافير الزمن الصعب الذي صدمها بنتائج حرب (١٩٦٧م)، وأخذ الإحباط والقلق يلفان كيانها حتى عزفت عن الكتابة مدة طويلة... كان الجرح يعتمل في نفسها حتى فاض تعبيراً ينتشل النفس من قهرها وحزنها فكتبت مقالاً بعنوان «أحمل عاري إلى لندن»....

هكذا شرعت تتابع إنتاجها الأدبي بغزارة لافتة للذهن بعد أن أثبتت جدارتها في عالم القصة والرواية والشعر و... فأصدرت عام (١٩٧٧م) روايتها (كوابيس بيروت) ثم نشرت في عام (١٩٧٩م) وحده خمس روايات هي (السباحة في بحيرة الشيطان ـ ختم الذاكرة بالشمع الأحمر ـ اعتقال لحظة هاربة ـ مواطنة متلبسة بالقراءة ـ الرغيف ينبض كالقلب) فضلاً عن كتاب في أدب الرحلات بعنوان (الجسد حقيبة سفر)...

عاشت للقراءة والكتابة المعبرة عن هموم المرأة العربية وقضاياها، ودافعت عن حريتها وكرامتها المتهنة؛ معلنة انحيازها إلى جانبها بمثل ما انحازت إلى دمشق سنديانة التاريخ رمز شجرة الياسمين والنارنج والكباد و... وحملتها في جوانحها؛ وهي التي نامت في أحضانها، وبادلتها حباً بحب، وإن عنّفت الواقع الاجتماعي فيها؛ وهو تعنيف وصل إلى حَدّ الشجار، بيد أنه يدل على عشق كبير لها؛ وفق ما دلت عليه روايتها (الرواية المستحيلة: فسيفساء دمشقية) الصادرة عام (١٩٩٧م) التي تعدُّ نمطاً من السيرة الذاتية لحياتها في (ساحة النجمة) بدمشق في الوقت الذي تحفل فيه بوصف ملامح دمشق حتى غدا المكان بطلاً في روايتها؛ حارات وأسواقاً وبيوتاً وأبواباً و... فضلاً عن احتفائها بعادات دمشق وتقاليدها وياسمينها ووردها و... فدمشق كانت تعيش في روح غادة وعقلها تتهامس وإياها همس العاشقين يشتاق كل منهما للآخر، حتى صارت رمزاً لسورية عندها؛ فإذا ذكرت دمشق عنت بها الوطن كله. ولعل شخصية (زين) في هذه الرواية تجسد صورة غادة السمان التي انصهرت بصورة دمشق وملامحها الرائعة، وهي تفجر صراعها مع كل امرأة استسلمت لقدرها، وللعادات البالية. فبطلة الرواية (زين) مثلها عنيدة، تمارس ألعاب الصبيان حتى صار الناس يصفونها بعبارة (حسن صبي)... وليس هذا إلا إمعاناً منها في خروجها عن صورة البنت المسكينة الضعيفة، العاجزة...

وهي رواية من عشر روايات ومجموعات قصصية صدرت منذ عام (١٩٨٠م) حتى عام (٢٠٠٤م) في الوقت الذي أصدرت ثماني مجموعات شعرية فضلاً عن كتب أخرى في أدب الرحلات وغيرها مثل (غربة تحت الصفر ـ شهوة الأجنحة ـ رعشة الحرية ـ الأعماق المحتلة).

هكذا أصّلت غادة السمان ذاتها روائية وقاصة وشاعرة وأديبة ناقدة، وكاتبة رسالة متميزة، وقدّمت طرزاً فنية لحقول فكرية مثيرة ومدهشة... فالتفت النقاد إليها وتناولوها بالتقريظ والثناء، والدرس مثل (محمود أمين العالم وسهيل إدريس....) وعدّوها متقدمة في جوانب عدّة على الكاتب العربي الكبير الروائي المرحوم نجيب محفوظ...

وكتب الدكتور غالي شكري عام (١٩٧٧م) كتابه البديع بعنوان (غادة السمان بلا أجنحة) وكتبت الدكتورة إلهام غالي (غادة السمان: الحب والحرب ـ سنة ١٩٨٠م)... ثم ظهر عام (١٩٨٧م) في تونس كتاب (الفن الروائي عند غادة السمان) لعبد العزيز شبيل...

وتجاوزت شهرة غادة السمان حدود الوطن العربي فكتب عنها بلغات عدة كالفرنسية والإيطالية والإنكليزية و... فمثلاً كتبت (نجلا الاختيار) باللغة الفرنسية كتاباً بعنوان (تحرر المرأة عبر أعمال غادة السمان وسيمون دي بوفوار) ـ وقد ترجم ونشر في دار الطليعة عام (١٩٩١م)...

وليس لدينا شك في أن غادة السمان مازالت تحتفظ بنصوص أدبية كثيرة غير مطبوعة، رسائل ومقالات، وقصصاً وشعراً... ولكنها في ضوء ما صدر لها دلت على غزارة إنتاج، وقدرة على الكتابة المبدعة؛ ما جعلها تحتل مكانة بارزة في عالم الأدب العربي الحديث...

إن غادة السمان انتمت لعالم الحرية، وانجذبت لجوهر الثقافة المنفتحة وأعطت القراءة الواعية جلّ وقتها، وكانت تثمر تلك القراءة في كتاباتها التي يدفعها إليها زوجها إذ تقول فيه:

كان «يضع حجر الأساس في علاقتنا بحرصه على أن أكتب وأكتب، ولم يكن مصاباً بالازدواجية، وكان يحتضن ما أخطه كالنبلاء والملوك الذين يتبنون فناً أعجبهم ووجدوه يستحق الحياة».

ولما افتقدته في عام (٢٠٠٧م) كتبت مقالات بكت فيها عمرها الثري معه قائلة فيه: «لا وقت عندي إلا لكتابة رسالة حب وشوق إليك، لكنك رحلت، ونسيت أن تترك لأحد في كوكبنا عنوانك».

فالحرية والثقافة، وحس التمرد على العلاقات الاجتماعية البالية جعلها تقدم لنا أدباً يفوح بأريج المواجهة الصريحة لموضوعة الحب والجنس وما يدور في فلكهما دون أن تسقط فيما يعرف بالأدب الإباحي. ولعل سيمياء العنوان لديها يشي بذلك قبل المضمون، ولا سيّما في مجموعاتها الشعرية التي حملت ذلك، مثل (حب ـ ١٩٧٣م، أعلنت عليك الحب ـ ١٩٧٦م، عاشقة في محبرة ـ ١٩٩٥م، الأبدية لحظة حب ـ ١٩٩٩م، والحب الافتراضي ـ ٢٠٠٥م) وغير ذلك ... وحينما تتناول الجنس فإنما تضعه في خدمة العمل القصصي والروائي للشخصية والموضوع؛ من أجل إبراز إنسانية المرأة المستلبة، وتؤكد الظلم الاجتماعي الذي وقع عليها؛ حين أنزلها إلى مرتبة دونية تابعة للرجل؛ وكأنها ما خلقت إلا إرضاء لغرائزه وإشباع رغباته المكبوتة. وهذا كله لا يعني أنها كانت تعادي الرجل أو تحجبه عن عملها الأدبي، وإنما جعلته صورة للرجل الإيجابي في قوته وضعفه.

فأديبتنا منذ انطلاقتها الأولى كانت تكتب برومانسية عالية وهي تصور علاقتها بالرجل دون أن تذوب في رغباته، ونرى أن مجموعتها القصصية الأولى (عيناك قدري) كانت تمثل صورة الأدب المبكر لديها... وهو أدب تطور كثيراً لغة وتعبيراً أو صورة ومضموناً ورؤية كما نجده في روايتها (كوابيس بيروت ـ١٩٧٧م، وليلة المليار ـ ١٩٨٦م، وسهرة تنكرية للموتى ـ ٢٠٠٣م)

وتشي مجموعتها الأولى بأنها كسرت الأغلال والقيود التي كانت تكبل الفتاة العربية... ولا شيء أدل على هذا من عرضها لوصية الشاعر (أسماء بن خارجة الفزاري) لابنته حين زُفّت إلى زوجها، وفيها يقول: «إنك خرجت من العش الذي فيه درجت، وصرت إلى فراش لا تعرفينه، وخِلٍّ لا تألفينه، فكوني له أرضاً يكن لك سماء، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً، وكوني له أمة يكن لك عبداً».

وبهذا استطاعت أن تعالج ـ مبكراً ـ مجموعة من مشكلات المرأة النفسية والاجتماعية، في الوقت الذي ثارت فيه على التربية العقلية التي تؤصّل للطبيعة الأنثوية المحبوسة في جسد جميل...

ومن ثم فإن تمردها كان يتوهج بحرارة التجربة العاطفية المحمولة على حرية العقل والإرادة، لا أن تبقى سجينة الفكر المتحجر والمتعفن الذي كبل المجتمع بأعراف بالية، ما جعلها تدير موضوعها حول موضوعات متنوعة مثل الكبت والخوف من الحرام...

وهذا يعني أنها ارتقت في مجموعتها إلى نمط سردي مغاير لما كنا نقرؤه عند عدد من الكاتبات آنذاك أمثال ليلى بعلبكي.

ويطول بنا المقام لو أردنا أن نتتبّع ما كتبته غادة السمان وما قالته، وما قيل عنها.. فكل ما دبجته يتسم بالعبارة السهلة الواضحة الشائقة الجذابة، ثم هي تسحرك بعبارتها المشرقة المطرزة في نُسج متلالئة تستغل طاقات اللغة إلى أبعد مدى... على الرغم من أنها كانت تفضل اختزال عباراتها مستندة في ذلك إلى استعارات وتشابيه تحمل من الإيجاز في التركيب، ما تحمل من كثافة الدلالة؛ ما حقق لها شهرة أدبية خاصة...

غادة السمان كاتبة من طراز خاص تتلبسك في فصاحتها وأسلوبها وصورها الوهّاجة، ورؤيتها الوجودية المثيرة المتمردة التي بلغت حدّ الرفض لكل ما نشأ عليه المجتمع العربي في عصرها... ولعل ما نقدمه بين يدي القارئ يعبر عن ذلك... وعساه ينتفع به.

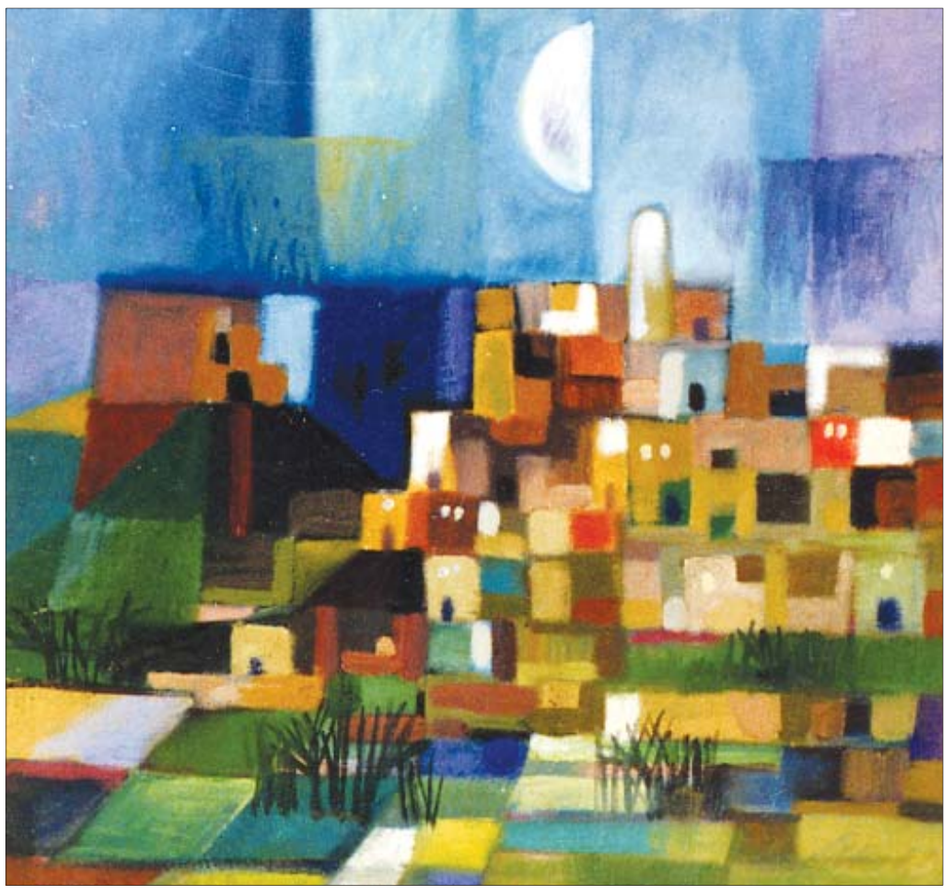

ساقية الروح

ياسين البكالي

((إلى إبنتي وهي تَطُلُّ برأسِها مِن شُرفةِ
الغيبِ وتُقَلّبُ بَصَرَها في وجهِ الوجودِ
فتدركُ أن الصمتَ هو اللغةُ الأنسبُ لِسبرِ
أغوارِ الذاتِ وأن الحقيقةَ الوحيدةَ في هذا
الفراغِ هي الوقوفُ على تَلّةٍ مِن سرابْ))

وأنّـتْـني.ولـم تَـكُـنْ بـعدُ تـدري
أنّ قلبي يـخـافُ مِـنّـي عليها
رُبّمـا أومـأتْ لـلـوجـودِ بِـشيءٍ
فارتمى الكونُ كلُّهُ في يديها
سَكَنَ القلبُ واعْترتْهُ الأماني
ثُـمّ مِنها مضى خيالي إليها
ثُمّ ما زلتُ خلفَ حَمدي أُصلّي
يا إلهي فيها أرى الشُكرَ فيها
ياابنةَ الروحِ إنّ بي ألفُ طِفلٍ
أوسَـعُـونـي لمّـا رأيـتـكِ تَـيْـها
لـكِ ما شئتِ.لي بِـنـاءُ المعاني
فـي يـديـكِ- قـصيـدةً أدّعِـيْـها

في يد العشق

عبد القادر النهاري

كل يوم وفيك ازداد حبا
واصب الهوى على القلب صبا
فأراني إليك اشتاق حتى
وأنا في يديك .. اشتاق هدبا
عاشق لم أزل على كل وعد
أتمنى أذوق في الكأس نخبا
عاشق والظما إليك تخطى
ما بروحي من الحياة فشبا
شب عن طوق ما رسمتُ لقلبي
فإذا القلب في يد العشق نهبا
أنت دنيا من الجمال وقلبي
فيك طفل على الهيام تربى
آه يا من سكبتِ في كل ضلع
من ضلوعي مغبة الحسن سكبا
وملأتِ الحياة حولي جمالا
فيه أحيا وفيه أشقيتُ قلبا
احمليني بطهر عينيك وارمي
بي بقلب إليه لونتُ دربا
ودعيني أعيش فيه حياة
لم أذق مثلها وقد زدت قربا
أسعديني بحبه وتخطي
حاجز الخوف إنني ذبت حبا

إصدارات ثقافية

رفقة الغرباء

● أولى الاقتصادي والأستاذ الجامعي البريطاني بول سيبرايت اهتمامه الأكبر لدراسة «التضامن الإنساني». وكان قد قدّم عام ٢٠٠٥ النسخة الأولى من كتابه «رفقة الغرباء، تاريخ طبيعي للحياة الاقتصادية» ثم أعاد النظر فيها وأغناها ليقدم طبعتها الجديدة تحت نفس العنوان.

إن التحليلات التي يقدمها المؤلف هي مزيج من الاقتصاد وعلم الاجتماع بالدرجة الأولى، هذا في سياق التطور وليس ثبات الأوضاع.

ولا يتردد في التأكيد أن «الثقة» التي تتسم فيها الأفعال المتداخلة اليومية لبشر مجهولين بالنسبة لبعضهم البعض تمثل إحدى الميزات التي يتسم فيها الجنس البشري، ذلك أن مثل هذه الثقة معدومة تماماً في مجتمع الحيوان.

وبعد أن يشير المؤلف إلى أن البشر قد «يخرقون» غداً ما كانوا قد قبلوا باحترامه اليوم، يؤكد أن الأعراف والقواعد الاجتماعية السائدة هي التي تحكم ردود أفعال البشر باعتبارهم أعضاء في مجموعات وليس مجرّد أفراد. ثم إن «المنظومة» هي التي تضمن سير آليات المجتمع. الأفراد يزولون لكن المنظومات بمجملها تتابع العمل.

يتم التأكيد في هذا النهج من التحليل أن «الاتفاقيات» التي تدعم أمننا الواقعي لا يتم التنسيق بينها في مكان واحد مثل منظمة الأمم المتحدة أو البنتاغون، ولكن هي في واقع الأمر نتيجة مليارات من القرارات الفردية الخاصة بالطريقة التي يتصرّف بها البشر حيال جيرانهم وزملائهم ونظرائهم.

لكن في بعض الحالات والظروف، مثلما جرى في رواندا بمنطقة البحيرات الإفريقية التي عرفت مذابح ذهب ضحيتها مليون شخص، تتعطل «الاتفاقيات» المعمول بها إنسانياً بحيث يصبح الجيران والزملاء والنظراء مصادر خطر للآخرين. هذه الحالات هي «نادرة» لحسن الحظ، كما يقول المؤلف، ليشير أن المجتمعات تمتلك دائماً قدرات كبيرة على تجاوزها.

ويشرح المؤلف أن حالة «التضامن» و«الثقة» التي شاعت بين البشر في المجتمعات التاريخية الأولى ثم تعززت مع مرور الزمن لم تأت فجأة. ولكن كان ثمنها ملايين المآسي «التي لم يسجلها أحد».

ثم إن التجّار المتجوّلين الأوائل كانوا ورثة المحاربين قبلهم. لكن هذا لا يمنع واقع أنهم كانوا «الأبطال الحقيقيين» لحضارتنا اليوم.

ويحدد المؤلف سبباً أساسياً في تشكّل «الحالة الجنينية» لهذه الحالة وهو الحاجة.ويرى المؤلف أن «الحاجة» ولّدها الواقع البدائي الذي عاشه أبناء مجتمعات ما قبل التاريخ.

ذلك أن العديد من المجموعات المعزولة آنذاك في زمن «الصيد والقطف» عاشت أوضاعاً محفوفة بالمخاطر وتتسم بقدر كبير من الهشاشة والمجاعات المتكررة والأوبئة. بعض تلك المجموعات «خاطرت» بمدّ يدها طلباً للمعونة من الآخرين «الغرباء».

دفع قسم من «المخاطرين» بطلب العون الثمن غالياً في حالات كثيرة. لكن أولئك الذين نجحوا في كسب «ثقة» الغرباء و«تضامنهم» هم بمثابة «أجداد الأحياء اليوم»، كما يقول المؤلف.

إن المؤلف يؤرّخ عامة في هذا الكتاب لـ «الحياة الاقتصادية للبشر» ويجد أن مفهوم «الثقة» هو الذي أسس للتضامن الذي تقوم عليه المجتمعات الحديثة. وتحديداً «الثقة» بالتعامل مع «الغرباء»، الآخرين من غير الأسرة القريبة في المجتمعات القديمة و«الغرباء» الآخرين من غير مجتمعات وشعوب الحضارات الحديثة.

هذه «الثقة» يدرسها المؤلف في مختلف المشارب التي شهدتها المجتمعات في تطورها من المقايضات ودورات المال الأولى ووصولا إلى المنظومات المصرفية ومروراً بالأسواق والملكية والدفاع والزراعة والمدن واللغة والكتابة ومختلف المؤسسات الحيوية في مسارات المجتمعات الإنسانية.

كذلك يدرس المؤلف ميول الأفراد في التصرّف أحياناً حسب ما يفضلونه دون الاهتمام بالنتائج على المجموعة. هذه «النتائج» قد تكون «مفيدة» أحياناً عبر «تنشيط التجارة» والأسواق عبر المبادرات الفردية.

وقد تكون سيئة أحياناً مثل المساهمة في زيادة التلوث وتخريب البيئة. تتم الإشارة هنا إلى الإشارة الصريحة لمفهوم «الصالح العام» في دستور الولايات المتحدة بالنسبة للعاملين في نفس القطاع.

الكتاب: رفقة الغرباء تاريخ طبيعي للحياة الاقتصادية
تأليف: بول سيبرايت
الناشر: جامعة برينستون
٠١٠٢ الصفحات: ٣٦٨ صفحة
القطع : المتوسط

الرأسمالية المحتضرة

● عند سقوط جدار برلين في مطلع شهر نوفمبر من عام ١٩٨٩ سادت فكرة مفادها أن الرأسمالية قد انتصرت نهائيا على منظومتها «المنافسة» الاشتراكية.

لكن بعد عقدين من الزمن فقط من تلك اللهجة «الظافرة» للرأسمالية ها هي تعاني اليوم من الاحتضار، كما يشرح الباحث الفرنسي «بول جوريون» في كتابه الذي يحمل عنوان «الرأسمالية المحتضرة».

فما الذي حصل خلال هذين العقدين؟

هذا هو السؤال الذي يجيب المؤلف عليه في كتابه، ويشرح أن الرأسمالية وجدت نفسها غداة انهيار جدار برلين «محرومة من الأعداء».

وتوقفت عن أن تكون منظومة اقتصادية بين منظومات أخرى لتصبح «الطريقة الوحيدة» التي يمكن للاقتصاد أن يعمل على أساسها.

ويرى المؤلف أن الثمانية عشرة سنة التي تفصل بين انتصار الرأسمالية واحتضارها تدفع إلى الاعتقاد أن المنظومتين المتناحرتين، الرأسمالية والإشتراكية، جرى «طرحهما أرضا» من قبل العلة نفسها.

والسبب هو أن تنظيم المجتمعات الإنسانية وصل إلى عتبة من التعقيد لا يمكن بعدها إلا أن تنتصر الفوضى. وحيث أن الهشاشة المفرطة لا بدّ وأن تدفع المنظومة الرأسمالية في السياق الحالي إلى خسارتها.

وتفسير آخر يقدمه المؤلف لحالة العجز التي وصلت إليها الرأسمالية بواقع أنها «تحتاج دائما إلى عدو» كي تستطيع التماسك وتوحيد صفوفها أمام التهديد الخارجي، كما تستطيع التماسك وتوحيد صفوفها أمام التهديد الخارجي. كما كان الأمر أثناء وجود المنظومة الشيوعية السابقة.

وتفسير ثالث يتمثل في القول أن المبالغة في اللجوء إلى الاقتراض في الدول الرأسمالية ذاتها، والولايات المتحدة الأميركية في مقدمتها، من أجل تحقيق الأهداف التي يدعو لها مجتمع الاستهلاك.

وبالتوازي تحقيق أهداف دفع الإنتاج بغرض زيادة المكاسب، كان لا بد إلا أن تؤدي المبالغة في الاتجاهين، إلى تمركز الثورة بيد القلة بحيث كان من المحتوم تضعضع المنظومة كلها ذات يوم.

هذه التفسيرات الثلاثة تواجدت بطريقة أو بأخرى، وإلى هذه الدرجة أو تلك، في النظام الرأسمالي. وقد«تضافرت جهودها» لتبرز نتائجها خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

هذا الأمر يفسّر، برأي المؤلف، نشوب الأزمة المالية العالمية التي لا يزال العالم يعاني من آثارها. بل ويرى أن أفق الخروج منها لا يبدو واضحا. ويضرب المؤلف عدة أمثلة على حجب السلطات للمعلومات عن الأسواق، وغياب الشفافية عن هذه الأسواق.

والمثال الأكثر شهرة عن ذلك هو أنه في إطار ما عُرف بـ «خطة إنقاذ المؤسسات المالية في الولايات المتحدة» خلال فترة ٢٠٠٨-٢٠١٠. لقد أكّدت السلطات المختصة يومها أنها لن تكشف عن أسماء البنوك المستفيدة من الخطة إلا إذا صدر قرار قضائي بذلك.

حجة رفض الكشف هو أنه «سيحرّض» المستفيدين من المساعدات وسيسيء لقوانين المنافسة. كان الخيار إذن هو بين الشفافية والمنافسة. وبالتالي «انتصرت» المنافسة.

والأمر نفسه تكرر في خريف عام ٢٠١٠ عندما رفض البنك المركزي الأوروبي الكشف عن المعلومات الخاصة بما جرى عمله لدى الأسواق كي تستطيع اليونان الخروج من أزمتها التي دفعتها آنذاك إلى حافة الإفلاس. باختصار كانت الشفافية «صعبة التحقق» بالنسبة لليونان وكذلك بالنسبة للأسواق الأوروبية عامة، كما يؤكد مؤلف هذا الكتاب.

فقدان الملاءة

يؤكد المؤلف أنه في مختلف الحالات كانت تتردد نفس الحجج والمقولات. ذلك أنه «بنظر السلطات ، في أميركا وأوروبا ، لم تكن الأسواق صلبة إلى درجة يمكنها معها أن تتحمّل حقيقة الأسعار. بصراحة كانت تفتقد للملاءة المالية»، كما يكتب المؤلف. في محصلة التحليل لواقع الرأسمالية اليوم يرى بها المؤلف «آلية هائلة تتباطأ حركتها أولا قبل أن تتوقف».

الكتاب: الرأسمالية المحتضرة
تأليف: بول جوريون
الناشر: فايار باريس ٢٠١١
الصفحات: ٣٥٢ صفحة
القطع : المتوسط